البلاغة القرآنية فى البسملة

بقلم الدكتور
حسينى على عطوة على الزهيرى
مدرس البلاغة والنقد بجامعة غانا

البلاغة القرآنية فى البسملة

بقلم الدكتور
حسينى على عطوة على
الزهيرى
مدرس البلاغة والنقد بجامعة غانا

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتصف بالجلال والكمال ، الذى جعل البسملة أولى السبع المثانى، فكان كلامه معجزا لأرباب الفصاحة والبيان، والصلاة والسلام على السيد العدنان، الذى أخبر بقطع البركة عن كل عمل لا يبدأ فيه ببسم الله، وعلى آله وأصحابه والذين اهتدوا بهداه.

وبعد

فإن الدرس البلاغى يجب أن يسعى نحو تحديد الخصوصيات الدقيقة التى تحدد كلام كل متكلم، وحديث كل متحدث، فإذا سمعت كلمة من كتاب الله انصرف ذهنك إلى أن هذا الكلام هو كلام الله، وإذا سمعت كلمة من حديث رسول الله انصرف ذهنك إلى أن هذا الكلام هو كلام رسول الله ـ ﷺ ـ ، وإذا سمعت كلاما من شعر زهير انصرف ذهنك إلى أن هذا الكلام هو كلام زهير .. وكذلك النابغة .. وأبالعلاء .. فلكل خصوصياته فى كلامه ولله المثل الأعلى.

وموضوع هذا البحث هو تحديد بعض الخصوصيات التى امتاز بها كلام الله تعالى فى البسملة، فكان عنوان البحث:

"البلاغة القرآنية فى البسملة"

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن أقسمه إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهرس.

المقدمة:بينت فيها أهمية الموضوع فى الدرس البلاغى،وخطته،ومنهجه.

التمهيد:تحدثت فيه عن البلاغة القرآنية،ومكانة البسملة فى الإسلام.

المبحث الأول: تحدثت فيه عما يتعلق بالبسملة من علم المعانى.

المبحث الثانى: تحدثت فيه عما يتعلق بالبسملة من علم البيان .
المبحث الثالث: تحدثت فيه عما يتعلق بالبسملة من علم البديع .
الخاتمة : وفيها أهم ما توصلت إليه من هذا البحث .
الفهرس : وهو مشتمل على فهرس للمراجع وآخر الموضوعات .

منهج البحث:

استخدمت فى هذا البحث المنهج الدراسى التحليلى، حيث قمت بما يلى:

أولا : دراسة البلاغة القرآنية دراسة أظهرت أن القرآن الكريم به وجوه لا توجد فى كلام الناس، وهذا من خصوصيات كلام الله تعالى .

ثانيا : دراسة مكانة البسملة فى الإسلام دراسة بينت أن البسملة جديرة بأن يبحث فيها عن البلاغة القرآنية .

ثالثا : تحليل خصائص التراكيب، ودلالاته فى البسملة، وكذلك الصور البيانية، والمحسنات البديعية تحليلا أثبت أن البسملة تتسع لتحتضن علوم البلاغة الثلاثة (المعانى، والبيان، والبديع) وأسرار البلاغة القرآنية فيها لا تتزاحم، وإنما تقبل المزيد لكل من أراد البحث والتنقيب .

وقد راعيت تخريج الأحاديث من مصادرها الأصلية، ونسبة البيت الشعرى إلى قائله .

وبعد ، فهذا ما من الله به على الباحث فى هذا الموضوع ، والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم النصير .

دكتور/ حسينى على عطوة على الزهيرى

غرة رمضان ١٤٢٩هـ
١٠ / ٨/ ٢٠٠٨م

التمهيد

- البلاغة القرآنية ٠
- مكانة البسملة فى الإسلام٠

البلاغة القرآنية

البلاغة القرآنية هى الوجوه التى توجد فى القرآن الكريم ولا توجد فى كلام الناس[١].

فإذا ما قمنا بتحليل نص أدبى شعرا كان أو نثرا وجدنا شخصية صاحبه وراء كل كلمة من كلماته، ومصورة فى حروفها، وأصواتها، وتراكيبها، وصورها، وشأنها كله.

بمعنى أنك تقرأ شعر امرئ القيس وكأنك ترى امرأ القيس يترحل فى الصحراء ، وتقرأ فى شعر النابغة وكأنك ترى النابغة محملا بهموم بنى ذبيان، وتقرأ شعر عمر بن أبربيعة وكأنك ترى عمر المدلل، وتقرأ شعر أبى نواس وكأنك ترى وسم أبى نواس، وتقرأ شعر مسلم بن الوليد وكأنك ترى وصف مسلم فى شعره، كل له مذهبه، وله خواطره.

"اقرأ أى قصيدة شئت، أو أى خطبة فسوف تجد وراء كل سطر نفسا إنسانية تشتاق، أو تطرب، أو تحزن، أو تحب، أو تكره، أو تعد، أو ما شئت مما يجرى فى خواطر الناس، واقرأ ما شئت من المصحف فلن تجد هذه النفس ألبتة، على حد وجودها هناك، وأحسب أن هذا هو الذى أدركه الجيل الأول، لما كان يسمع آيات القرآن فيبسط يده إلى رسول الله - ﷺ - مبايعا ، وكان قبل ذلك بقليل يكاد يتميز غيظا على هذا الأمر، وإنما حدث فى هذه الدقائق القصيرة شىء اقتلع كل ما فى النفس، حتى كأنه كفأها كما يكفأ الإناء، وأفرغ كل ما فيها، ولابد أن يكون ذلك ثمرة إحساس فاجأ النفس، وهيمن عليها، وقهرها، وليس إلا أنه اعتاد أن يرى الإنسان فى كل ما تسمعه أذنه من لغة الإنسان، فلما سمع القرآن لم يجد فيه ما اعتاده، وإنما وجد الله فاستيقن"[٢].

---

(١) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى وأثرها فى الدراسات البلاغية، صـ٣١، أ.د/ محمد أبوموسى، الطبعة الثانية، دار التضامن ١٩٨٨م.

(٢) المرجع نفسه صـ٣٣ ، ٣٤ .

وهذه هى قيمة البلاغة القرآنية وما تحدثه فى نفس سامعيها، وإذا كان موضوع البحث هو دراسة هذه البلاغة فى البسملة التى لا يتم أى عمل إلا بالبدء بها، فإنه ينبغى على الباحث أن يتناول مكانة البسملة فى الإسلام وهذا ما سنراه بمشيئة الله تعالى فى الصفحات التالية .

مكانة البسملة فى الإسلام

البسملة شعار المسلمين، ويقصد بها اللجوء إلى الله تعالى فى كل شىء يحبه ويرضاه . وقد جاءت آيات كثيرة، وأحاديث وفيرة تدل على مكانة البسملة فى الإسلام .

قال تعالى: ژ □ □ ى ى ي ي □ □ □ □ ژ[1]، **وقال تعالى:** ژ ڑ ک ک ک ک گ گ گگ ژ[2].

وكان الرسول . ﷺ . لا تفوته البسملة فى بداية أى عمل من الأعمال كالأكل، والشرب، والذبح، والطهارة، وركوب البحر، والجماع، إلى غير ذلك .

ومن الأحاديث التى رويت فى هذا الشأن ما ورد عن أبتميمة عن أبىالمليح عن رجل قال: كنت رديف النبى . ﷺ . فعثرت دابته، فقلت تعس الشيطان، فقال: "لا تقل: تعس الشيطان، فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت، ويقول: بقوتى صنعته، ولكن قل: بسم الله الرحمن الرحيم، فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب"[3].

وروى عنه . ﷺ . : "كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع"[4].

وليس معنى ذلك أن الإسلام يربى أتباعه على الاستكانة والضعف وإهمال القوى الإنسانية اعتمادا على اللجوء إلى الله .

---

(١) سورة الأنعام : ١١٨ .

(٢) سورة هود : ٤١ .

(٣) أخرجه أبوداود فى سننه، كتاب الأدب، ج٤ صـ٢٩٧، ط دار الحديث ، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، جـ٥ صـ٥٩، ط دار الفكر العربى .

(٤) حسنه النووى، صحيح مسلم بشرح النووى، جـ١ صـ٣٤ ط الشعب .

بل إن التعبير بـ"بسم الله الرحمن الرحيم" ينفى هذه التهمة، فهو صريح فى أن للعبد عملا أساسيا، وأنه إنما يعمل بأمر الله، ولولا الله لما فعله، ولما قدر عليه، فالله هو الذى خلقه، وهو الذى أودع فيه قوى التفكير والعمل، وهو الذى أمدها برحمته، ولو تخلت رحمته عنها طرفة عين لما كانت ولما كان الإنسان ... إن الإنسان فى هذه الحياة فى حاجة إلى قوتين يباشر بإحداهما عملا، ويقوى بالأخرى روحه المعنوية ...

فإذا اتجه الإنسان إلى ربه القوى القاهر وتمثل عظمته ورحمته كان ذلك أدعى إلى أن يقدم على ما يريد قوى النفس ثابت العزم؛ لأنه واثق أنه يأوى إلى ركن قوى شديد، وهذا يدعو العبد إلى تحرى ما يرضى ربه، ويبعده عن غضبه، فهو لا يعنون عمله ببسم الله إلا حيث يعلم أن ذلك العمل يرضى ربه ... وبهذا تتجلى فائدة البسملة فى الناحيتين، وهذا أسمى ما يتصور من شعار يتخذ عنوانا لأمة من الأمم[1].

وإذا كانت البسملة بهذه المثابة، وتلك المكانة فهى جديرة بأن يبحث فيها عن البلاغة القرآنية التى هى من خصوصيات كلام الله تعالى. وهذا ما سيتناوله الباحث فى الصفحات التالية.

(١) تفسير القرآن الكريم للشيخ شلتوت صـ٢٠ بتصرف، نقلا عن: تفسير سورة الروم دراسة تحليلية موضوعية صـ٢٣ د/محمد السيد بندارى ط سنة ١٩٩١م.

البلاغة القرآنية فى البسملة

الجدير بالذكر قبل الحديث عن البلاغة القرآنية فى البسملة هو إلقاء الضوء على المعنى اللغوى للبسملة، فأقول وبالله التوفيق:

معنى الباء فى البسملة هو الاستعانة، والاسم أحد الأسماء العشرة التى بنوا أوائلها على السكون، وهو عند البصريين فى الأصل (سمو) أو (سمو) بدليل جمعه على (أسماء) جمع تكسير، وتصغيره على (سمى)، وتصريفه على (سميت)، ونحوه.

فاشتقاقه من (السمو) وهو العلو مناسب؛ لأن التسمية تنويه بالمسمى، وإشادة بذكره، حذف عجزه كما فى (يد) و(دم) فبقى حرفان: أولهما متحرك، والثانى ساكن، فلما حرك الساكن للإعراب، أسكن المتحرك للاعتدال ، فاحتيج إلى همزة الوصل؛ إذ كان دأبهم أن يبتدوا بالمتحرك، ويقفوا على الساكن حذرا من اللكنة والبشاعة.

وعند الكوفيين (اسم) مشتق من الوسم والسمة، وهى العلامة، فأصله (وسم) ، حذفت الواو وعوضت عنها همزة الوصل؛ ليبقى على ثلاثة أحرف ، ثم يتوسل بذلك إلى تخفيفه فى الوصل[1].

ورأى البصريين هو الأولى بالقبول لمناسبة ذلك لذات الله العلية.

وأما لفظ (الله) فهو اسم الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد. وأصل هذا الاسم (الإله) بالتعريف، وهو تعريف (إلاه) الذى هو اسم جنس للمعبود، مشتق من (أله) بفتح اللام بمعنى: عبد، أو من (أله) بكسر اللام بمعنى تحير أو سكن أو فزع أو قلع مما يرجع إلى معنى هو ملزوم للخضوع والتعظيم، فهو (فعال) بكسر الفاء بمعنى

---

(١) من رياض القرآن الكريم فى تفسير سورة العلق وأسرارها البلاغية صـ١٨، ١٩ ، أ.د/عبدالمنعم محمد السيد منصور، ط أولى ١٩٩٧م، مطبعة السلام بالزقازيق.

(مفعول) مثل: كتاب بمعنى مكتوب، أطلقه العرب على كل معبود من أصنامهم لأنهم يرونها حقيقة بالعبادة، ولذلك جمعوه على (آلهة) بوزن (أفعلة) مع تخفيف الهمزة الثانية مدة[1].

(الرحمن الرحيم) صفتان مشتقتان من الرحمة، وقد روعى فى كل منهما معنى لم يراع فى الآخر، فمعنى (الرحمن) : عظيم الرحمة؛ لأن (فعلان) أشد مبالغة فى كثرة الشىء وعظمته، وهى صفة خاصة به سبحانه .

ومعنى (الرحيم) : دائم الرحمة؛ لأن صيغة (فعيل) تستعمل فى الصفات الدائمة، وتطلق على من يرحم غيره بالفعل، ژ □ □ □ ژ[2] وسيأتى بيان لهما فى ثنايا الشرح.

والآن يطيب للباحث أن يتجه إلى الحديث عن البلاغة القرآنية فى البسملة، وذلك على النحو التالى:

المبحث الأول: ما يتعلق بالبسملة من علم المعانى.

المبحث الثانى: ما يتعلق بالبسملة من علم البيان.

المبحث الثالث: ما يتعلق بالبسملة من علم البديع.

(١) تفسير التحرير والتنوير، ج١ ص١٦٢ ، للشيخ الطاهر ابن عاشور ، ط تونس.

(٢) سورة الأحزاب: ٤٣ .

المبحث الأول
ما يتعلق بالبسملة من علم المعانى

علم المعانى هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق الكلام مقتضى الحال[١].

والمراد بأحوال اللفظ ما يشمل أحوال الجملة بطرفيها فى الفصل والوصل، والإيجاز، والإطناب، والمساواة، وما يشمل أحوال كل من طرفيها كالذكر، والحذف، والتقديم، والتأخير، وغيرها، وما يشمل أحوال الإسناد كالتأكيد، والقصر، وغيرها.

فإذا ما ولينا النظر نحو البسملة لنرى ما يتعلق بها من علم المعانى وجدنا أن الحال فيها هى الاستعانة بالله والثناء عليه.

والاستعانة بالله تقتضى تقدير المتعلق به مؤخرا، والتقدير: بسم الله أبدأ ، أو بسم الله ابتدائى.

وعلى ذلك يكون تقديم الجار والمجرور "بسم الله" لإفادة الاهتمام باسمه تعالى، ولإفادة القصر.

والتقديم بوجه عام له مزاياه فهو "باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شىء، وحول اللفظ من مكان إلى مكان"[٢] وإنما يكون للتقديم هذا الحسن إذا لم يؤد إلى تعقيد فى الكلام.

والتقديم فى البسملة - هنا - لم يؤد إلى تعقيد فى الكلام مما يوجب له هذا الحسن، فضلا عن ذلك الاهتمام بالمقدم والاعتناء به، وهو اسم الله تعالى؛ ولذلك وجب أن يقدر المحذوف مؤخرا.

---

(١) الإيضاح فى علوم البلاغة صـ٩، للخطيب القزوينى، مطبعة محمد على صبيح ١٩٧١م.

(٢) دلائل الإعجاز، للإمام عبدالقاهر الجرجانى صـ٧٢، ٧٣ تحقيق/ محمد رشيد رضا، مكتبة القاهرة ط١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

أما قوله تعالى: ﮋ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ فإنما قدم الفعل فيه؛ لأنها أول سورة أنزلت، فكان ابتداء الأمر بالقراءة فيها أهم.

ومن أغراض التقديم فى البسملة ـ أيضا ـ إفادة التخصيص، أى تخصيص الابتداء ببسم الله تعالى من قصر الصفة على الموصوف بطريق التقديم.

ودلالة القصر على التقديم دلالة ذوقية تفهم بالقرينة الحالية حيث فهم أن الابتداء مقصور على اسم الله تعالى منفى عن غيره.

ومقامات القصر ـ هنا ـ متعددة على حسب حال المخاطب، فإذا كان المخاطب يعتقد أن البركة تحصل بالابتداء ببسم الله تعالى وغيره، فيسمى قصر إفراد ، وإذا كان المخاطب يعتقد أن البركة تحصل بالابتداء بغير اسم الله تعالى فيسمى قصر قلب؛ لأن المتكلم عكس الحكم على المخاطب، وإذا كان المخاطب يعتقد أن البركة تحصل بالابتداء ببسم الله تعالى أو بغيره فيسمى قصر تعيين، لكن هذه الحال بعيدة؛ لأنه ليس هناك من يعتقد ذلك.

ولعل القارئ الكريم يلحظ ـ هنا ـ مخالفة البلاغة القرآنية للسنن العربى الفصيح، حيث قدر المحذوف مؤخرا مع أن السنن العربى يقتضى تقديره مقدما، وهذا من خصوصيات كلام الله تعالى، ليظهر كمال العناية بالمقدم، وتخصيص المؤخر به.

هذا عن الحال الأولى وهى الاستعانة بالله، أما عن الحال الثانية وهى الثناء على الله فهى تقتضى قطع الصفات، أعنى: "الرحمن الرحيم"؛ لأنهم نصوا على أن النعوت إذا كان المقصود منها المدح فالأولى قطعها؛ لأن فى قطعها دلالة على أن المنعوت متعين بدونها، وإنما أتى بها لمجرد المدح[1].

---

(١) ينظر: شرح ابن عقيل جـ٣ صـ٢٠٤، ٢٠٥، تحقيق الشيخ/ محمد محيالدين عبدالحميد، الطبعة العشرون ١٩٨٠م،مكتبة دار=

ولا يخفى عليك أن الوارد فى الكتاب والسنة هو الاتباع ، وهو بذلك مخالف لمقتضى الحال، فتظهر . هنا . البلاغة القرآنية التى هى من خصوصيات كلام الله تعالى، والإتباع جاء جريا على الأصل؛ إذ الأصل عدم القطع .

ثم إنك إذا قطعت تلك الصفات على تقدير: هو الرحمن الرحيم، أو أعنى الرحمن الرحيم، كانت الجملة مفصولة، فيقال حينئذ: ما سبب الفصل دون الوصل؟

وعلى فرض أنك أجبت عن هذا التساؤل بأنه لم يقصد التشريك بين الجملتين فى الحكم، أو أن بين الجملتين كمال الانقطاع؛ لأن جملة "أبدأ باسم الله" خبرية، وجملة "هو الرحمن الرحيم" إنشائية معنى، ومتى كان بين الجملتين كمال الانقطاع تعين الفصل .

أقول: إن الإتباع أولى من القطع لوروده فى الكتاب والسنة، ولوجود المناسبة بين المفردات، وهى مناسبة العموم والخصوص .

حيث بدأ بلفظ الجلالة "الله"؛ لأن "هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وتعالى وأجمعها، حتى قال بعض العلماء: إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره، ولذلك لم يثن ولم يجمع، وهو أحد تأويلى قوله تعالى: ژ پ پ پ پ ژ[1]**، أى من تسمى باسمه الذى هو "الله" فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية المنفرد بالوجود الحقيقى لا إله إلا هو سبحانه"[2].**

=التراث بالقاهرة، وقطر الندى وبل الصدى صـ٢٨٨ تحقيق الشيخ / محمد محيىالدين عبدالحميد، المكتبة العصرية ـ صيدا ، بيروت.

(١) سورة مريم: ٦٥ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى، جـ١ صـ٨٤، ط النور الإسلامية، وتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير، جـ١ صـ٣٥، ط الشعب .

ثم ثنى بالرحمن الذى يدل على صفة الرحمة القائمة بذاته تعالى، وهو على وزن (فعلان)، وهى صيغة مبالغة تدل على الكثرة، فرحمة الرحمن تتدارك فى الدنيا للمؤمن والكافر، والطائع والعاصى، فهى أكثر وأشمل وأعم.

ثم ختم بالرحيم الذى يدل على المبالغة فى الرحمة . أيضا . ولكنها خاصة بالمؤمنين يوم القيامة[1].

فالمناسبة بين هذه الأسماء (الله الرحمن الرحيم) مناسبة عموم وخصوص، حيث بدأت البسملة "بذكر الأعم فالأخص، فوصف نفسه أولا بالرحمن الذى منع من التسمية به، ثم الرحيم . جل جلاله . وهى أخص من الأولى"[2].

ولهذا وردت تلك الألفاظ بالإتباع ولم ترد بالقطع، فحق لهذه الأسماء (الله الرحمن الرحيم) أن يسمى بها الله، وأن يكون لها الصدارة فى كتاب الله . عزوجل . لذا قال : ژ پ پ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ژ.

هذا عما يتعلق بالبسملة من علم المعانى، أما ما يتعلق بها من علم البيان فنراه فى السطور التالية .

---

(١) أسماء الله الحسنى معانيها وأسرارها، صـ٦، ٧، بتصرف ، أ.د/أحمد عمر هاشم، الناشر: المركز الإعلامى العربى ميديا جروب ط١٩٩٩م.

(٢) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير، جـ١ صـ٣٦، ط الشعب.

المبحث الثانى
ما يتعلق بالبسملة من علم البيان

علم البيان هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه[١].

ونرى الإمام عبدالقاهر الجرجانى يكشف عن قيمة الصور البيانية، ويبين ميزاتها بقوله: "فالاحتفال والصنعة فى التصويرات التى تروق السامعين وتروعهم، والتخييلات التى تهز الممدوحين وتحركهم، وتفعل فعلا شبيها بما يقع فى نفس الناظر إلى التصاوير التى يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش، أو بالنحت والنقر، فكما أن تلك تعجب وتخلب، وتروق وتؤنق، وتدخل النفس من مشاهدتها حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها، ويغشاها ضرب من الفتنة لا ينكر مكانه ولا يخفى شأنه ." [٢].

على أن قيمة الصورة إنما تنبع من خلال ما تتركه من أثر فى نفس متذوقيها، وذلك من خلال الهيئة والصورة التى تنشأ من مجموع العلاقات بين الأفراد، وليس باللفظ وحده أو بالمعنى وحده.

وتزداد الصورة قوة وأثرا فى النفس إذا كانت من كلام الله رب العالمين، وهذا ما نراه من خلال الألوان البيانية فى البسملة حسب ترتيب الجملة، وذلك على النحو التالى:

أولا: الباء للإلصاق، والإلصاق إما أن يكون حقيقة كأمسكت بعلى، إذا قبضت على شىء من جسمه. وإما أن يكون مجازيا كمررت بعلى، أى: ألصقت مرورى بمكان يقرب منه.

---

(١) الإيضاح، للخطيب القزوينى، صـ١٢٠ .

(٢) أسرار البلاغة، للإمام عبدالقاهر الجرجانى، جـ١ صـ٢١٦، تحقيق أ.د/ محمد عبدالمنعم خفاجى، ط ثالثة ١٩٧٩م.

والباء هنا فى البسملة للاستعانة، وعلى هذا فهى مجازية من ناحيتين: إحداهما، أنه شبه الارتباط على وجه الاستعانة بالارتباط على وجه الإلصاق، بجامع مطلق الارتباط فى كل، فسرى التشبيه من الكليات إلى الجزئيات، ثم استعيرت "الباء" الموضوعة للإلصاق الجزئى للاستعانة الجزئية على سبيل الاستعارة التبعية فى الحرف.

وفى هذا التصوير تجسيد للمعنوى فى صورة ملموسة محسة تجعل القارئ والسامع يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه؛ لأن "التصوير بالاستعارة يصور المنظر للعين، وينقل الصوت إلى الأذن، ويجعل الأمر المعنوى ملموسا محسا"(١).

والأخرى: أنه أطلق "الباء" عن الارتباط المقيد بالإلصاق، واستعملها فى الارتباط على وجه الاستعانة على سبيل المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق والتقييد.

وسر بلاغة المجاز المرسل تكمن فى التأكيد لأنه كدعوى الشىء ببينة، فضلا عن الإيجاز والمبالغة(٢).

ونقل معنى "الباء" من الإلصاق إلى الاستعانة يستدعى أن تكون الاستعانة بالذات لا بالاسم، وهنا قد جعلها القرآن بالاسم، فهو مجاز مبنى على مجاز.

والمجاز المبنى عليه سبق بيانه، أما المجاز المبنى فيقال فيه: شبه الارتباط الواقع بين مطلق مستعان فيه واسم المستعان به بالارتباط الواقع بين مطلق مستعان فيه وذات المستعان به، فسرى التشبيه من الكليات إلى الجزئيات، فاستعيرت "الباء" الموضوعة للارتباط بين المستعان فيه ونفس المستعان به الخاصين للارتباط بين

(١) من بلاغة القرآن صـ٢١٧، د/ أحمد بدوى، ط ثانية، نهضة مصر، ١٩٥٠م.

(٢) أسرار البيان صـ١٣٥، د/ على محمد حسن العمارى، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط١٩٩٨م.

المستعان فيه واسم المستعان به الخاصين على طريق الاستعارة التبعية.

ثانيا: الجار والمجرور فى البسملة متعلق بمحذوف. كما سبق. وحينئذ ففيها مجاز بالحذف على رأى من يقول: إن الحذف مجاز مطلقا(١).

لكن الأولى القول بعدم المجازية. هنا. لعدم وجود استعمال الكلمة فى غير ما وضعت له، وهو تعريف المجاز، وكذلك لم يتغير بسببه إعراب الباقى مثل ما تغير فى قوله تعالى: ژ گ گژ(٢).

ثالثا: الإضافة تفيد التخصيص إذا كان المضاف إليه نكرة، نحو: هذا غلام امرأة، وتفيد التعريف والتوضيح إذا كان المضاف إليه معرفة، نحو: هذا غلام زيد(٣).

ونرى البلاغة القرآنية فى البسملة. هنا. قد خرجت عن هذا السنن العربى، حيث أضافت كلمة "اسم" إلى لفظ الجلالة "الله" ولم تفد تعريفا، رغم أن المضاف إليه أعرف المعارف.

لكن خروج البلاغة القرآنية. هنا. عن السنن العربى له تميزه الظاهر، حيث استعمل هيئة الإضافة الموضوعة لتعريف المضاف بالمضاف إليه فى تبيين المضاف إليه للمضاف، ففيه مجاز بالاستعارة.

ولبيان هذه الاستعارة أقول: شبه مطلق نسبة شىء لشىء على أن الثانى مبين للأول بمطلق نسبة شىء لشىء على أن الثانى مخصص أو معرف للأول، بجامع مطلق التعلق فى كل فسرى التشبيه

---

(١) حاشية الدسوقى على شرح السعد، صـ٤ ، ضمن كتاب "شروح التلخيص".

(٢) سورة يوسف : ٨٢ .

(٣) شرح ابن عقيل، جـ٣ صـ٤٤، تحقيق الشيخ/ محمد محيالدين عبدالحميد، مكتبة دار التراث ، ط٢٠، ١٩٨٠م.

من الكليات إلى الجزئيات، فاستعيرت صورة الإضافة الموضوعة للنسبة الجزئية المفيدة للتعريف أو التخصيص للنسبة الجزئية المفيدة للبيان على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

والاستعمال على الاستعارة أبلغ من التصريح بما يريد، لأن الاستعمال عليها "أمد ميدانا، وأشد افتنانا، وأكثر جريانا، وأعجب حسنا، وأوسع سعة، وأبعد غورا ... وأملأ كل ما يملأ صدرا، ويمتع عقلا، ويؤنس نفسا، ويوفر أنسا"(١).

رابعا: لفظ الجلالة "الله" علم على الذات العلية علم شخصى لا جنسى.

وقد اختلف فى الأعلام الشخصية، فقيل: إنها حقيقة؛ لأنها استعملت فيما وضعت له، وقيل: إنها واسطة بين الحقيقة والمجاز؛ لأنهما من خواص الأمور الكلية، والأعلام الشخصية موضوعة لمعان جزئية (٢).

وبناء على هذا الخلاف فإن لفظ الجلالة "الله" حقيقة على الرأى الأول، وعلى الرأى الثانى لا حقيقة ولا مجاز بل واسطة بينهما.

خامسا: رحمن ورحيم مشتقان من الرحمة، وهى رقة فى القلب وانعطاف تقتضى التفضل والإحسان، وهى مستحيلة عليه سبحانه وتعالى؛ إذ : ژ ڈ ڈ ژ(٣)، وعلى هذا فالمراد من الرحمة لازمها، وهو التفضل والإحسان، على سبيل المجاز المرسل التبعى؛ لأن التجوز فيهما تابع للتجوز فى أصلهما.

وذكر الدسوقى أن بعض العلماء قالوا بصحة وجود استعارة تمثيلية فى الكلام، وأجروا تلك الاستعارة على النحو التالى: شبه حال

---

(١) نظرات فى البيان صـ١٦٦ ، د/ محمد عبدالرحمن الكردى، ط ثانية ١٩٨٣م.

(٢) تنظر: حاشية الدسوقى، ج١، ص٥، ضمن شروح التلخيص.

(٣) سورة الشورى : ١١ .

الحال مع عباده فى إيصاله لهم جلائل النعم ودقائقها، بحال ملك رق قلبه على رعيته فأوصلهم إنعامه، بجامع: هيئة عظيم مسئول على ضعفى ممد لهم بإحسانه، واستعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه.

ولكن هذا القول اعترض عليه بعدة اعتراضات[1]:

الأول: أن اللفظ المستعار فى التمثيلية لابد أن يكون مركبا، كما فى: "إنى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى"، واللفظ المستعار هنا مفرد.

ويمكن أن يجاب عن هذا الاعتراض بأنه يجوز أن يقتصر على بعض المفردات ويرمز به إلى المركب، على أن المشترط فى اللفظ منها إنما هو مطلق تركيب، وهو حاصل بالرحمن الرحيم، وليس بلازم أن يكون تركيب جملة.

الثانى: أن المشبه به شأنه أن يكون أقوى من المشبه، وجعل حال الملك أقوى من حال الله لا يتم.

ويمكن أن يجاب عن هذا الاعتراض بأنه ليس المراد القوة بحسب الحقيقة ونفس الأمر فقط بل القوة ولو بالاعتبار. كما هنا. فحال الملك باعتبار مشاهدتها للقاصرين أقوى. ويؤيد هذا الرد قول الله تعالى: ژ ہ ہ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ... ژ[2].

الثالث: أن استعارة اللفظ من شىء لشىء تقتضى استعمال اللفظ فى المستعار منه، وقد نصوا على أن الرحمن الرحيم مختصان بالله، ولم يستعملا فى غيره.

---

(١) حاشية الدسوقى، جـ١ صـ٥، ٦.

(٢) سورة النور: ٣٥.

ويمكن أن يجاب عن هذا الاعتراض بأن الاستعمال فى المستعار منه ليس بلازم بل يكفى الوضع للمستعار منه الذى هو المعنى الحقيقى ٠

على أن الأولى بالقبول هو القول بأن "الرحمن الرحيم" فيهما مجاز مرسل لعلاقة الملزومية، حيث أطلق الملزوم، وأراد اللازم وهو التفضل والإحسان، وإنما كان هذا القول هو الأولى بالقبول لسلامته من الاعتراضات ٠

هذا ما من الله ـ تعالى ـ به على الباحث مما يتعلق بالبسملة من علم البيان، أما ما يتعلق بها من علم البديع فنراه ـ بمشيئة الله تعالى ـ فى السطور التالية ٠

المبحث الثالث
ما يتعلق بالبسملة من علم البديع

علم البديع هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة[١].

والمحسنات البديعية تحقق الإمتاع الذهنى، والترفيه النفسى، لما لها من أثر فى جلال المعنى وجمال اللفظ، حتى عدها قوم وجها من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم، ومنهم الدكتور/ عبدالقادر حسين[٢].

وهذا ما سنراه ـ إن شاء الله تعالى ـ واضحا من خلال المحسنات البديعية الواردة فى البسملة، وهى على النحو التالى:

أولا: التورية، وهى أن يطلق لفظ له معنيان: قريب وبعيد، ومراد به البعيد منهما[٣] ، فقد أطلقت الرحمة، وأريد بها التفضل والإحسان، والقرينة هى استحالة المعنى القريب الذى هو الرقة، والتورية ـ هنا ـ حسنت المعنى تحسينا ذاتيا لا عرضيا.

ثانيا: القول بالموجب، وهو أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام، أى: يكون فى الكلام إثبات أمر بدليل عقلى[٤] كما فى قوله تعالى: ژ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ژ[٥].

وبيان القول بالموجب فى البسملة هو أن قوله: "بسم الله الرحمن الرحيم" فى قوة قولنا: لا أبتدئ إلا باسم الله؛ لأنه الرحمن الرحيم.

---

(١) الإيضاح فى علوم البلاغة، صـ١٩٢ .
(٢) فن البديع، صـ٣٨، للدكتور/ عبدالقادر حسين، ط أولى، دار الشروق، ١٩٨٣م.
(٣) الإيضاح، صـ٢٠١ .
(٤) المصدر نفسه، صـ٢٠٨ .
(٥) سورة الأنبياء : ٢٢ .

ثالثا: الاستخدام، وهو أن يراد بلفظ له معنيان أحدهما، ثم بضميره معناه الآخر[١] وهو واضح فى البسملة على أن المراد فى اسم الجلالة اللفظ، وفى "الرحمن" ضمير يعود على "الله" باعتبار الذات.

رابعا: الالتفات، على مذهب السكاكى[٢]؛ لأن مقتضى الظاهر فى التوجه إلى الله تعالى أن يقال: باسمك اللهم، فعدل عن مقتضى الظاهر، وقيل: بسم الله الرحمن الرحيم.

ولا يخفى ما للالتفات من أثر فى النفس، فهو "من محاسن الكلام ووجه حسنه على ما ذكر الزمخشرى هو أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن نظرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد"[٣].

خامسا: الإدماج، وهو أن يضمن كلام سيق لمعنى معنى آخر[٤] كما فى قول أبىالطيب:

أقلب فيه أجفانى كأنى ∴ أعد بها على الدهر الذنوبا

---

(١) الإيضاح ، صـ٢٠٢ .

(٢) الالتفات عند الجمهور هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة (التكلم أو الخطاب أو الغيبة) بعد التعبير عنه بطريق آخر. ينظر : الإيضاح صـ٤٣، وعند السكاكى هو التعبير بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره، أو كان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بغيره. ينظر: الإيضاح صـ٤٤ .

فكل التفات عند الجمهور التفات عند السكاكى وليس العكس. وإنما ذكرته ضمن المحسنات البديعية لما له من حسن فى الكلام.

(٣) الإيضاح، صـ٤٥ .

(٤) المصدر نفسه، صـ٢١٢ .

فإنه ضمن وصف الليل بالطول الشكاية من الدهر، وبيان الإدماج فى البسملة أن الغرض الأصلى منها التبرك والاستعانة باسمه تعالى، فبعد أن ذكر هذا الغرض منها أدمج فيها الثناء على الله بكونه رحمانا رحيما ٠

وهكذا تبين أن البسملة رغم وجازتها إلا أنها تتسع لتحتضن علوم البلاغة الثلاثة (المعانى والبيان والبديع)، وأسرار البلاغة القرآنية فيها لا تتزاحم، وإنما تقبل المزيد لكل من أراد البحث والتنقيب ٠

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وإمام المتقين . وبعد ٠

فيمكننا بعد هذه الجولة مع البسملة أن ندون هذه النتائج:

أولا: البلاغة القرآنية هى من خصوصيات كلام الله تعالى الذى جاء على نسق عال رفيع المستوى ٠

ثانيا: للبسملة مكانة عالية فى الإسلام، فهى شعار المسلمين، بل ومن أحب القربات إلى الله رب العالمين ٠

ثالثا: أسلوب البسملة جاء مركبا تركيبا بالغ الدقة، فلا ترى تقديما أو تأخيرا أو ذكرا أو حذفا إلا لمقتضيات ودواع ودلالات يعجز البشر عن مراعاتها ٠

رابعا: الصور البيانية فى البسملة متعاونة متآلفة، تملأ القلب روعة وخشوعا، وتمنح النفس سكينة وطمأنينة ٠

خامسا: المحسنات البديعية فى البسملة جاءت ملائمة للمقام دون اجتلاب فجملت اللفظ، وجللت المعنى حتى أمتعنت الذهن، ورفهت النفس ٠

فالحمد لله الذى هدانا للإسلام، وأنعم علينا بالقرآن، وشرفنا ببعثة سيدنا محمد عليه الصلاة وأزكى السلام ٠

دكتور

حسينى على عطوة على

فهرس المراجع

أولا : القرآن الكريم ٠

ثانيا : المراجع الأخرى ٠

١ – أسرار البلاغة، للإمام عبدالقاهر الجرجانى، تحقيق أد/محمد عبدالمنعم خفاجى، ط ثالثة، ١٩٧٩م ٠

٢ – أسرار البيان، د/ على محمد حسن العمارى، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط١٩٩٨م ٠

٣ – أسماء الله الحسنى معانيها وأسرارها، أد/ أحمد عمر هاشم، الناشر/ المركز الإعلامى العربى ميديا جروب، ط١٩٩٩م ٠

٤ – الإيضاح فى علوم البلاغة ، للخطيب القزوينى، مطبعة محمد على صبيح، ١٩٧١م ٠

٥ – البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى وأثرها فى الدراسات البلاغية، أد/ محمد أبوموسى، الطبعة الثانية، دار التضامن ١٩٨٨م ٠

٦ – تفسير التحرير والتنوير، للشيخ الطاهر بن عاشو، ط تونس ٠

٧ – تفسير سورة الروم، دراسة تحليلية موضوعية، أد/محمد السيد بندارى طبعة ١٩٩١م ٠

٨ – تفسير القرآن العظيم ، للحافظ ابن كثير، مطبعة الشعب ٠

٩ – الجامع لأحكام القرآن ، للإمام القرطبى، مطبعة النور الإسلامية ٠

١٠ – حاشية الدسوقى على شرح السعد ، ضمن كتاب "شروح التلخيص"، دار السرور، بيروت ٠

١١ – دلائل الإعجاز فى علم المعانى، للإمام/ عبدالقاهر الجرجانى، تحقيق/ محمد رشيد رضا، مكتبة القاهرة، ط١٣٨١هـ . ١٩٦١م ٠

١٢ – سنن أبى داود، ط دار الحديث٠
١٣ – شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق الشيخ/ محمد محيالدين عبدالحميد، الطبعة العشرون ١٩٨٠م، مكتبة دار التراث بالقاهرة٠
١٤ – صحيح مسلم بشرح النووى، مطبعة الشعب ٠
١٥ – فن البديع، للدكتور/ عبدالقادر حسين، ط أولى، دار الشروق، ١٩٨٣م٠
١٦ – قطر الندى وبل الصدى، تحقيق الشيخ/ محمد محيالدين عبدالحميد، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت٠
١٧ – من بلاغة القرآن، د/ أحمد بدوى، ط ثانية ، نهضة مصر، ١٩٥٠م٠
١٨ – من رياض القرآن الكريم فى تفسير سورة العلق وأسرارها البلاغية، أد/عبدالمنعم محمد السيد منصور، ط أولى ١٩٩٧م، مطبعة السلام بالزقازيق٠
١٩ – مسند الإمام أحمد بن حنبل، مطبعة دار الفكر العربى٠
٢٠ – نظرات فى البيان، د/ محمد عبدالرحمن الكردى، ط ثانية ١٩٨٣م٠